مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد الثامن
1991 م.

حملة إبراهيم باشا على سورية
بمناسبة مرور 150 سنة عليها

الدكتور شوقي أبو خليل
دمشق - سورية

حملة نابليون على سورية:

احتل نابليون مصر[1]، للضغط على بريطانية بسيطرته على طريق الهند، دُرة التاج البريطاني، وفي شباط (فبراير) سنة 1799 م، قرر القيام بحملة على سورية بعدما انقطع اتصاله بفرنسة[2]، والزحف مع جيشه نحو الشمال إلى آسية الصغرى.

استولى جيش نابليون المؤلف من (13.000) محارب على العريش وغزة ويافا وحيفا دونما أية صعوبة، واقترب في أواسط آذار (مارس) من أسوار عكا، وفي 16

(1) نابليون بونابرت Napoléon: [1769 -1821 م]، ولد في أجاكسو (كورسيكا)، اشتهر في حملة إيطالية الأولى 1794 والثانية 1796، قاد حملة على مصر سنة 1798، فانتصر في معركة الأهرام، عاد إلى فرنسة 1799 ليصبح القنصل الأول، ثم امبراطوراً سنة 1804 م، نُفِيَ إلى جزيرة القديسة هيلانة بعد معركة واترلو 1815، حيث توفي فيها.

(2) وتحطم أسطوله في أبي قير (شرقي الإسكندرية) على يد الأسطول الإنكليزي. (أول آب ـ اغسطس 1798 م).

نيسان (إبريل) قهر نابليون عند جبل (طابور) في الجليل جيشاً عثمانياً مؤلفاً من (20.000) محارب، أرسله باشا دمشق لمحاربته.

وكان يبدو سير الحملة موفّقاً، إلا أنه اصطدم بأسوار عكا التي سدت على نابليون طريق الشمال، ولم يكن لدى الفرنسيين ما فيه الكفاية من مدافع الحصار، فحاولوا جلبها بحراً، غير أنَّ القائد الإنكليزي (سدني سميث)[3] نجح ـ بحراً ـ في الاستيلاء عليها وهي في طريقها إلى الفرنسيين، وعلى إثر ذلك، دخل الأسطول الإنكليزي بقيادة سميث خليجَ عكا، ودافع عن الحصن بنيران مدافعه، وحاول نابليون أكثر من مرَّة اقتحام الحصن المحاصر، إلا أن جميع هجماته منيت بالفشل، وبعد هذا الفشل، وبعد تفشي الطاعون في جنده، قرر بعد مضي سبعين يوماً[4] على الحصار، العودة إلى مصر، وبهذا انتهت الحملة على سورية بفشل الفرنسيين التام[5].

حاول المماليك توطيد أقدامهم في مصر بعد الحملة الفرنسية، ولكنهم أرهقوا الشعب بالضرائب، فقرر سكان القاهرة في 12 آذار (مارس) 1804 م الإحاطة بالمماليك، منتهزين الخلافات الموجودة داخل معسكر المماليك، فحوصر قصر عثمان البرديسي الَّذي استطاع الفرار ناجياً بنفسه.

استغل محمد علي[6] ـ كسياسي بارع ذكي ـ الموقفَ، فانحاز إلى الثوار بعدما أدرك قوة الحركة الشعبية المتعاظمة، فنمت شعبيته، وخلال شتاء: 1804 -1805 م لاحق محمد علي وقواته المماليك في جنوبي مصر، وفي الوقت ذاته أعاد الوالي العثماني (خورشيد باشا) وانكشاريته المعاناة للشعب من جديد، كما كانت أيام المماليك[7]، فاندلعت في القاهرة ثورة أيار (مايو) 1804 م، فطردت

(3) سيدني سميث: [1764 -1840 م] قائد الأسطول الإنكليزي في البحر المتوسط.

(4) استمر الحصار من 18 آذار (مارس) إلى 20 أيار (مايو) عام 1799 م.

(5) تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص: 53.

(6) محمد علي بن إبراهيم آغا بن علي: [1770-1849 م]، ولد في (قوله) التابعة الآن لليونان، وتوفي بالاسكندرية.

(7) كفرض التعويضات الكبيرة على الأهالي، وأخذ الرهائن، وجباية الضرائب لسنة كاملة مقدماً من القرى..

الانكشارية، وأطاحت بخورشيد باشا، ونادت بمحمد علي والياً على مصر[8].

وبسبب الخلافات الإنكليزية ـ العثمانية سنة 1807 م، سيّر الإنكليز حملة على مصر، فأنزلوا في 17 آذار (مارس) سنة 1807 م قوّةً قوامها (5.000) محارب إلى الإسكندرية، فخاض المصريون الحرب بقيادة محمد علي ضد الإنكليز، وسحقوا في نهاية آذار (مارس) في شوارع مدينة رشيد[9] وحدة عسكرية إنكليزية عددها (ألفا) محارب، كانت قد تغلغلت في هذه المدينة، فوجه القائد الإنكليزي إلى رشيد وحدة أخرى أقوى من الأولى بمرتين، إلا أنها سُحقت أيضاً، وفي أيلول (سبتمبر) 1807 م ركبت القوات الإنكليزية الباقية السفن، وغادرت أرض مصر.

وشرع محمد علي فور استلام الحكم بإنشاء جيش نظامي قوي، فقرر مبدأ تجنيد الفلاحين المصريين في الجيش بعد الحملة على الجزيرة العربية[10]: [1811 -1818 م]، وبعد حملة المورة[11]: [1824 -1828 م]، التي قاسى أثناءها وهلك من البرد الجنود الإفريقيون، الذين كان يشكلون القسم الأكبر من الجيش المصري.

لقد شرع محمد علي ببناء جيش نظامي قوي، ففي السنوات الأولى، قام بتدريب الجيش أخصائيون عسكريون أجانب، فاقيم معسكر تدريبي كبير في مدينة (أسوان)[12]، حيث انخرط فيه آلاف الشباب المصريين والسودانيين، للتدريب العسكري تحت إشراف مدربين فرنسيين وإيطاليين، ولعب الضابط الفرسي (سيف[13] Sève) دوراً بارزاً بينهم.

---

(8) عصر محمد علي، لعبد الرحمن الرافعي، ص 31 وما بعدها، طبعة دار المعارف بمصر، 1982 م.

(9) رشيد Rosette: مدينة في مصر على النيل (محافظة البحيرة)، على ساحل البحر المتوسط، عند مصب فرع النيل الذي يحمل اسمها.

(10) بأمر من السلطان العثماني لإخماد الحركة الوهابية التي بدأت بنجد (الدرعية). (عصر محمد علي، ص 118 وما بعدها).

(11) وهي حرب اليونان التي بدأت سنة 1821، فاستعان الباب العالي (السلطان محمود) بمحمد علي سنة 1824 م، (عصر محمد علي، ص 189 وما بعدها).

(12) أسوان: مدينة على النيل، جنوبي مصر.

(13) سيف Sèves: [1788 -1860 م] كولونيل فرنسي اعتنق الإسلام في مصر، ودُعي سليمان باشا.

كما أقام محمد علي عدة مدارس حربية، لإعداد الكوادر القيادية من المصريين، كمدرسة المشاة في دمياط[14]، ومدرسة الخيالة في الجيزة[15]، ومدرسة المدفعية قرب القاهرة، وفي سنة 1826 م أُنشئت أكاديمية الأركان العامة، وتُرجمت الأنظمة العسكرية الداخلية الفرنسية إلى اللغة العربية، لكي تكون متوفرة لدى وحدات الجيش الجديد، وكانت كافة تنظيمات الجيش على شاكلة جيش نابليون تماماً، فالقوات كانت مجهزة بالمدفعية، حتى قال أحد العسكريين الأوروبيين: يمكن مقارنة هذه المدفعية الممتازة بمدفعية الجيوش الأوروبية، وعند النَّظر إليها يعجب المرء دون إرادة منه بقدرة السلطة التي جعلت من الفلاحين جنوداً صالحين إلى هذه الدرجة[16].

وكانت الأسلحة تشترى من أوروبة، ويصنع جزء منها في مصر نفسها.

ولم يكتف محمد علي بإنشاء القوات البرية، بل اهتم بإنشاء أسطول وطني مصري. فبعد (نڤارين)[17] وفي سنة 1829 تمَّ بناء دار سفن كبيرة في الإسكندرية، وفي سنة 1831 م أُنزلت إلى البحر أول سفينة ذات مئة مدفع.

وفي بادىء الأمر كانت أغلبية عمال صناعة السفن من الأوروبيين، إلا أنه هيئت في وقت قصير الكوادر الوطنية من العمال المهرة[18].

وتطلب إعادة تنظيم الجيش تشييد العديد من المصانع والمعامل اليدوية، فبالقرب من دار بناء السفن بالاسكندرية شُيدت مصانع لصب المعادن، والحدادة،

---

(14) دمياط: مدينة على مصب نهر النيل (الفرع الشرقي)، على البحر المتوسط.

(15) الجيزة: هي اليوم محافظة بالقرب من الأهرام، فيها أنقاض مدينة (منف) الفرعونية.

(16) تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص: 68. ولتنظيمات محمد علي العسكرية، انظر: عصر محمد علي، ص: 322 وما بعدها.

(17) رست سفن محمد علي بميناء (نڤارين) ـ على الشاطىء الغربي للمورة (اليونان) ـ في 9 أيلول (سبتمبر) 1827 م، منضماً إلى أسطول عثماني جاء من اسطنبول بقيادة الأميرال طاهر باشا، وعدده 23 سفينة، وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1827 م، فقدت مصر أسطولها على يد الأساطيل الأوروبية المتحالفة (عصر محمد علي، ص 208).

(18) وكان عددها 8.000 عامل كلهم تقريباً من المصريين، مع تدريب 15.000 مصري على الفنون البحرية.

وأقمشة الأشرعة، وفتل الحبال وغيرها من المشاريع المتمِّمة، مع مصنع لصبِّ الحديد، وثلاثة معامل أسلحة، ومصنع بارود، ولسدِّ حاجات الجيش والأسطول المصري، شُيدت معامل للقطن والكتان والأجواخ والحبال ومصانع للطرابيش، وأنشئت مصانع للسكر، وكانت تعود كافة هذه المشاريع للدولة، أو لأفراد الأسرة الحاكمة.

وتقدمت الزراعة في عهد محمد علي تقدماً سريعاً، كما توسعت مشاريع الري، ورمِّمَت قنوات الري القديمة، وأنشئت أخرى جديدة، فأصبحت (الدَّلتا) تسقى بنظام ري دائم[19].

فلسطين بعد مغادرة القوات الفرنسية:

اشتدَّت بصورة محسوسة قوة أحمد الجزار وسطوته، بعدما عزا لنفسه شرف الانتصار على نابليون، وبعدما وقفت مدينة عكا بوجه جيش أوروبي لم يُغلب، وصدت هجوم جيش حديث لم يذق طعم الهزيمة.

وبعزيمة جديدة قوية، كان الجزار، وهو ثمل بالانتصار، يسعى إلى وضع سورية برمتها تحت سلطته، فخاض حروباً متواصلة ضد باشوات دمشق وطرابلس، آملاً ضم ممتلكاتها إليه، وطبيعي أن السلطان سليم الثالث الذي خاض معارك ضد ميول ولاته الانفصالية، استطاع أن يُحدَّ سلطة الجزار ونفوذه بكل الوسائل.

وفي الوقت ذاته، وجد الجزار منافساً جديداً له في شخص صنيعته وتابعه بشير الثاني[20] الأمير اللبناني، الذي وحَّد كل لبنان تحت سلطته، فقرر التخلص

---

(19) خصوصاً بعد إتمام بناء القناطر الخيرية، يقول المسيو شيلو Chelu: «إن مشروع القناطر الخيرية كان يعد في ذلك العهد أكبر أعمال الري في العالم قاطبة»، وذلك في كتابه: (النيل والسودان ومصر، طبع سنة 1891)، وقال المسيو بارو Baros الأمين العام لوزارة الأشغال في كتابه: (الري في مصر) طبع سنة 1911: «إن هذه أول مرة أقيمت فيها قناطر كبرى من هذا النوع على نهر كبير».
ولتفاصيل مشاريع الري في عهد محمد علي، انظر: (عصر محمد علي)، منشآت الري والزراعة، ص 487 وما بعدها.

(20) بشير بن قاسم بن عمر الشهابي: [1760 -1850 م] أكبر الأمراء الشهابيين، ولد في قرية (غزير) بظاهر بيروت، وعندما كبر اتصل بأحمد الجزار فقربه ثم ولاه إمارة لبنان، فكانت له حوادث كثيرة، =

من هذا المنافس، إلا أن الباب العالي قرر مساندة بشير الثاني، فأصبح خاضعاً مباشرة للباب العالي، متخلصاً من التبعية لأحمد الجزار، وفي سنة 1803 م عقد معه صلحاً ودفع بشير الثاني له 400 ألف قرش[21] عن الضرائب المتأخرة للسنوات المنصرمة، و 500 ألف قرش اتاوةً سنوية.

وفي نيسان (إبريل) 1804 م توفي أحمد الجزار، ليحكم (سليمان باشا) ـ قائد جيش الجزار ـ جنوب سورية خمسة عشر عاماً: [1804 -1819 م].

واشتد التذمر في سورية ضد تجديدات السلطان محمود الثاني وإصلاحاته، في العقد الثاني من القرن التاسع عشر، خصوصاً عندما أدخل الملابس الأوروبية، والطربوش بدل العمامة، فاعتبر ذلك (فرنجة للدولة)، وأتبع ذلك سنة 1826 م، بإلغاء نظام الإقطاعيات العسكرية رسمياً، وتصفية فيلق الانكشارية.

وسادت إضرابات في القدس، وبيت لحم، ونابلس.. ورفض السكان دفع الضرائب الباهظة.

وفي سنة 1830 م قامت انتفاضة أخرى في نابلس.

أدرك محمد علي ضعف السلطان بعد حرب اليونان الفاشلة، وأن نزاعه مع السلطان العثماني ستكون سورية ميدانه الطبيعي، فهي من أغنى أقاليم الامبراطورية العثمانية، تنتج خامات الحرير، والصوف، والقمح، وزيت الزيتون، والفواكه المتنوعة، والأخشاب الضرورية لصنع السفن.. وبمقدور سورية أن تصبح سوقاً ملائمة للصناعة المصرية النامية.

الحملة على سورية [1831 -1840]:

أسباب الحملة: إن حرب الشام يصح اعتبارها حرباً دفاعية، وحرباً

= وعزل مرات، وأعيد، آزر إبراهيم باشا فقبض عليه الإنكليز عندما عاد إبراهيم من سورية، ونفوه إلى مالطا، ثم انتقل إلى اسطنبول وتوفي فيها. (الأعلام 57/2).

(21) القرش: عملة نقدية كانت متداولة في الامبراطورية العثمانية، كان يعادل في ابتداء القرن التاسع عشر 1/4 فرنك أو 1/5 روبل فضي.

هجومية، أما كونها حرباً دفاعية، فلأن محمد علي يعلم أن الدولة العثمانية لا تفتأ تسعى لاسترداد مركزها في مصر ما وجدت سبيلاً إلى ذلك، وأن السلطان محمود الثاني لم يكن خالص النية نحوه، بل كان ينظر بعين الحسد إلى تقدم مصر وما كسبته من المكانة العالية، ولم ينس كذلك أن مصر امتنعت عن مساعدته في حربه مع روسية سنة 1828، فحقد السلطان على محمد علي، وأخذ يتربَّص به لينتقم منه وينتزع منه حكم مصر، ولم يكن يحول بينه وبين ذلك سوى ارتباك أحوال الدولة العثمانية وضعفها، فإذا ما سنحت الفرصة، فإنه لا يتردد في التخلص من خصمه، فطموح محمد علي إلى فتح سورية، كان الغرض منه أن يدافع عن مصر وعن مركزه فيها[22].

إن ما كتبه الدكتور كلوت في هذا الصدد، يعبر بوضوح عن وجهة نظر محمد علي في الحملة على سورية، إذ يقول: «إن ضم سورية إلى مصر كان ضرورياً لصيانة ممتلكات الباشا، فمنذ تقرر في الأذهان أن إنشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل يفيد المدنية فائدة عامة، وجب الاعتراف بأنه لا يمكن إدراك هذه الغاية إلا بضم سورية إلى مصر. . ولا يمكن الاطمئنان إلى بقاء مصر مستقلة إلا بإعطائها الحدود السورية، لأن حدودها ليست في السويس، بل في طوروس»[23].

فالحرب السورية، من هذه الوجهة، كانت إذن حرباً دفاعية.

لكنها كانت أيضاً حرباً هجومية، وكان الغرض منها التوسع، والتربع على عرش امبراطورية، فإن محمد علي كان يطمع إلى ضم سورية منذ سنة 1810 م، وكان يأمل أن يصل إلى حكمها بموافقة السلطان، كتب المسيو دروفني[24]، وكان من أكبر أعوان محمد علي، رسالة إلى حكومته سنة 1811 م يقول فيها: «إن محمد علي يطمع في ولاية سورية، وقد قال لي يوماً: إنه لا يستبعد أن ينالها مقابل مبلغ من المال ـ سبعة أو ثمانية ملايين قرش ـ يدفعها لخزانة السلطان، وقد أخذت فكرة

---

(22) عصر محمد علي، ص: 217.

(23) عصر محمد علي، ص: 218.

(24) دروفني: قنصل فرنسة في مصر.

الاستقلال تزداد رسوخاً عنده منذ استظهاره على أعدائه، وقمعه فتنة الجند، وتخلصه من الارتباكات المالية»[25].

وقد أشار المسيو دروفني في رسالة أخرى لحكومته إلى معدات الحملة المصرية على الوهابيين، فأظهر الشك فيما أضمر محمد علي منها، وهل يقصد بها الحجاز أم سورية، قال في هذا الصدد:

«إن جميع الاستعدادات التي يعدها الباشا تدل على أن الحملة تخترق الصحراء وتصل منها إلى سورية، ولا تزال غايتها الحقيقية سراً مكنوناً في ضميره، وخطته في هذا الصدد لم تتغير، وهي التأني ثم التصرف مع الأحوال بحسبها».

وقد طلب فعلاً من السلطان خلال الحرب الوهابية أن يعهد إليه بولاية الشام، وكانت حجته في ذلك أنه في حاجة إلى مدد منها لمعاونته على قتال الوهابيين.

ففكرة ضم سورية إلى مصر كانت إذن تختلج في نفس محمد علي منذ سنة 1810 م، ولقد صرفه عنها انهماكه في الحرب الوهابية[26]، ثم فتح السودان[27]، ثم الحرب اليونانية[28]، فلما انتهى من هذه الأخيرة، أخذ يفكر في إنفاذ فكرته القديمة.

ومن الراجح الذي تؤيده الحوادث أن مشروع محمد علي كان يتناول إنشاء دولة عربية مستقلة في مصر، تضم إليها البلاد العربية في إفريقية وآسية، خصوصاً بعد فتح السودان، وبسط نفوذه على معظم أجزاء الجزيرة العربية.

ويؤيد هذه الفكرة رجحاناً، بعض تصريحات فاه بها إبراهيم باشا خلال الحرب السورية، فقد ذكر المسيو كادلفين وبارو في كتابهما أنه بينما كان الحصار مضروباً على عكا، سُئل إبراهيم باشا إلى أي مدى تصل فتوحاته إذا تم له

(25) عصر محمد علي، ص: 218.

(26) الحرب ضد الوهابيين: [1811 -1819 م].

(27) حروب السودان: [1820 -1822 م].

(28) الحرب اليونانية [1821 -1829 م]، ومشاركة محمد علي: [1824 -1827 م].

الاستيلاء على عكا؟! فقال: إلى مدى ما يتكلم الناس وأتفاهم وإياهم باللسان العربي[29].

وقابل البارون (لبو الكونت) إبراهيم باشا بالقرب من طَرَسُوس[30] بالأناضول سنة 1833 م، بعد عودته من كوتاهية، وكان له معه حديث طويل، فذكر عنه: «إن إبراهيم باشا يجاهر علناً بأنه ينوي إحياء القومية العربية، وإعطاء العرب حقوقهم، وإسناد المناصب إليهم سواء في الإدارة، أم في الجيش، وأن يجعل منهم شعباً مستقلاً، ويشركهم في إدارة الشؤون المالية، ويعودهم سلطة الحكم كما يتحملون تكاليفه، وتتجلى فكرته هذه في منشوراته ومخاطباته لجنوده في الحرب الأخيرة بسورية، فإنه لا يفتأ يذكرهم بمفاخر الأمة العربية ومجدها التالد، ويتصل بهذا المعنى مجاهرته بأن كل البلدان العربية يجب أن تنضم تحت لواء أبيه، وقد قال لي إن أباه يحكم مصر والسودان وسورية، ومن الواجب أن يضم العراق إلى حكمه، وإن جزيرة العرب تابعة لأبيه الذي يعمل الآن على إتمام فتحها، وهو في صلاته مع أهل البلاد يستخدم اللغة العربية، ويعد نفسه عربياً، ولذلك لا ينفك يطعن في الأتراك، وقد لاحظ عليه ذلك أحد جنوده، وخاطبه بتلك الحرية التي كان يشجع رجاله عليها، وسأله كيف يطعن في الأتراك وهو منهم، فأجابه إبراهيم باشا على الفور: «أنا لست تركياً، فإني جئت مصر صبياً، ومنذ ذلك الحين قد مصَّرتني شمسها، وغيَّرت من دمي، وجعلته دماً عربيّاً»[31].

فهذه البيِّنات تدلنا على ما اتَّجه إليه فكر إبراهيم باشا من تأسيس دولة عربيَّة، تجمع شمل الناطقين بالضاد.

وكان لمحمد علي في فتح سورية أغراض اقتصادية، فإنه أراد استغلال مواردها من الخشب وخامات المعادن، خصوصاً بعد أن أنشأ محمد علي المصانع الكبرى.

---

(29) كادفلين وبارو: حرب مصر ضد الباب العالي في سورية والأناضول سنة 1831 -1833 م، ص: 412.

(30) طرسوس: مدينة بثغور الشام، شمالي خليج الاسكندرونة ـ (معجم البلدان 28/4).

(31) كتاب مهمة البارو (لبو الكونت)، ص: 248 -249.

أما الأسباب المباشرة للحملة على سورية: فلقد استغل محمد علي الخلاف القائم بينه وبين عبد الله باشا والي صيدا[32]، بسبب ستّة آلاف من الفلاحين المصريين، الذين كانوا قد هربوا سنة 1831 م من التجنيد، ولجؤوا إلى فلسطين، وطلب محمد علي من عبد الله باشا إرجاع الفلاحين الفارين إلى مصر قسراً[33]، إلا أن عبد الله باشا رفض تسليمهم إلى مصر بحجة معقولة، وهي: أن جميع السكان بوصفهم رعية لعاهل واحد هو السلطان، يستطيعون العيش في أي مكان كان من الامبراطورية العثمانية، وعندئذ بدأ محمد علي بعملياته الحربية، مع التظاهر بالإخلاص للسلطان والولاء له.

الحملة من 1831 إلى 1833: في أواخر تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1831 م[34]، عبرت صحراء السويس قوة خيالة نظامية مشكلة على نحو ممتاز تضم 9 آلاف فارس، وبطاريتين لمدفعيّة الميدان، وألف بدوي، كانت هذه الحملة تحت قيادة (كوجوك إبراهيم باشا) ابن أخي محمد علي[35]، وأبحر إلى شاطىء فلسطين أسطول من 7 فرقاطات، و 33 من المراكب الحربية الأخرى ووسائل النقل، وقوة إنزال من 7 آلاف شخص ومدفعية حصار، وكان فيه إبراهيم باشا، القائد العام للجيش، وكانت الأركان مكونة من ضباط اختبروا في حملتي شبه جزيرة العرب والمورة.

فتحت مدن فلسطين أبوابها: غزّة، ويافا، حتّى حيفا[36] حيث التقت الحملة

---

(32) ولاية صيدا قاعدتها عكا، ولذلك تسمى أحياناً ولاية عكا.

(33) مما يجدر ذكره أن محمد علي كانت له يد سابقة على عبد الله باشا، فقد عزلته الحكومة العثمانية (بعد تمرده) من ولاية صيدا سنة 1822 م، فتشفع له محمد علي، فعفت عنه وأبقته في ولايته، ولكن عبد الله باشا لم يحفظ هذه اليد لمحمد علي، ولم يكترث لغضبه، وكان فضلاً عن إيوائه الفارين المصريين، يساعد قوافل التجارة على تهريب المتاجر من الجمارك المصرية وتمريرها عبر طريق صحراء سورية، فأضر ذلك بالخزانة المصرية، (عصر محمد علي، ص 221)، بتصرف.

(34) وفي 14 تشرين الثاني (نوفمبر) غادرت القوات المصرية القاهرة كلياً.

(35) سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص 112، وعصر محمد علي، ص 222، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص: 126.

(36) حيفا: المدينة الواقعة على سفح جبل الكرمل، مقابل عكا، التي لا يفصلها عنها سوى عرض خليج صغير.

البرية الأسطول واستقبلت جيش الإنزال، وإلى هذه النقطة نفسها أرسلت من مصر وسائل النقل المحملة بالمؤونة والذخيرة للحصار، لأن كل مقاومة عبد الله، سوف تتركز في عكا، حسب توقعات محمد علي الصائبة[37].

وفيما نزل إبراهيم باشا إلى الساحل، وفي طريقه إلى حيفا أكدت له القبائل الجبلية طاعتها واستعدادها للقتال تحت راياته، وفي أواسط تشرين الثاني (نوفمبر) وصل جيش الحصار إلى عكا، وبعد عدة أيام حينما هبت ريح مواتية، أطلق الأسطول النار على المدينة.

التجأ عبد الله باشا إلى الباب العالي يطلب العون، وراح الأمير بشير الشهابي يراقب الأحداث من علياء جباله ليكيّف أعماله لها، وعلم بتوجيه عبد الله رسولاً إلى العاصمة، وحينما تلقى دعوة إبراهيم باشا، تباطأ في الجواب، بانتظار الأخبار من الآستانة، وقبض أناس أرسلهم الأمير على مبعوث عبد الله قرب بيروت في طريق عودته إلى عكا، وقُرئت الرسائل، ولم يرد الباب العالي بشيء على طلبات عبد الله باشا، وحتى إنَّ وكيله في العاصمة، كتب: إنه لا يجوز توقع مساعدة عاجلة، نظراً لعدم تمتعه بحظوة لدى الديوان، هذا الخبر، أرغم الأمير على أخذ جانب المصريين[38].

ودخلت قوات إبراهيم باشا القدس، مع خشية السكان أن يبيح المصريون المدينة للنهب، ويدنسوا المقدسات، ولكن إبراهيم باشا وجه إلى القاضي الشرعي، والمفتي، وشيخ مسجد عمر.. وكل السلطات، الكتاب التالي:

«في القدس معابد وأديرة وأماكن للحج تأتي إليها من أبعد البلدان كل الشعوب المسيحية واليهودية من مختلف الطوائف الدينية، وكانت ترهق هؤلاء الحجاج إلى الآن ضرائب ضخمة في أداء نذورهم وفرائض دينهم، ورغبة منا في استئصال هذا العسف، نأمر كل متسلمي إيالة صيدا[39]، وسنجقي القدس ونابلس

---

(37) سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص 112.

(38) المرجع السابق، ص 113 بتصرف.

(39) إن إبراهيم باشا جعل أوامره الحكومية حتى الاستيلاء على عكا تقتصر على منطقة نفوذ عبد الله، =

بإلغاء هذه الضرائب على كل الطرق بلا استثناء، يقيم في أديرة القدس وكنائسها رهبان ومتعبدون لقراءة الإنجيل وأداء الطقوس الدينية لمعتقداتهم، والعدل يقتضي أن تعفىٰ من كل الضرائب التي فرضتها عليها السلطات المحلية بشكل تعسفي، ولهذا نأمر بأن تلغىٰ إلى الأبد كل الضرائب التي تُجْبَى من أديرة ومعابد كل الشعوب المسيحية المقيمة في القدس من يونانيين وفرنجة وأرمن وأقباط وغيرهم، وكذلك الضرائب القديمة والجديدة التي يدفعها الشعب اليهودي، ومهما كانت الذريعة أو التسمية التي تؤخذ بها هذه الضرائب هدية عادية وطوعية، أو إلى خزينة الباشوات، أو في مصلحة القضاة والمتسلمين والديوان وما شابه ذلك، فإنها جميعاً ممنوعة منعاً باتاً، وتلغىٰ على حد سواء الكفارة التي تجبى من المسيحيين عند دخول كنيسة قبر السيد المسيح، أو عند التوجه إلى نهر الشريعة (الأردن)، وعليكم، ما أن نقرأ هذا البيورلدي (الأمر)، أن تسارعوا إلى تنفيذه كلمة كلمة، وتوقفوا فوراً جباية كل الضرائب المذكورة أعلاه وغيرها من الضرائب القائمة على العادة. وكل مطلب من أديرة القدس ومعابدها العائدة إلى مختلف الشعوب[40] المسيحية واليهودية، شأن الكفارات، كأمر مناف للقانون، بعد إعلان هذا الأمر سيعاقب بصرامة كل من يطلب أقل أتاوة من المعابد والأديرة المذكورة والحجاج، ولتنفيذه أصدرنا هذا البيورلدي عن ديوان (مجلس) قيادتنا العليا»[41].

إن كلمات كهذه على شفتي باشا مسلم، على شفتي فاتح جريء ما أن استولى على سورية حتى أخذ يحلم باستئصال الفساد، وبعدم إرهاق الشعب بالضرائب والأتاوات، لأمر هام، ناهيك عن التدابير الأمنية السديدة، التي اتخذها إبراهيم باشا، والتي فتحت للحجاج الطريق إلى فلسطين، ففي السنتين الثانية والثالثة من الحكم المصري بلغ عدد اليونانيين والأرمن الذين جاؤوا من كل المناطق العثمانية إلى القدس (10 آلاف) شخص، وقد اغتنت بهم يافا والسكان الجبليون

= محاولاً بحرص أن يصوِّر للشعب حربه بمثابة قضية بينه وبين عبد الله، ويبعد مظهر الانتفاضة ضد سلطة السلطان.

(40) يقصد ـ بالأسلوب العثماني الرسمي ـ بالشعوب عادة: (الطوائف).

(41) سورية ولبنان تحت الحكم العثماني، ص 115. وعصر محمَّد علي، ص 224.

الـذين كانـوا يعملون مرافقين، وسكـان القدس التي كـان الحجاج يمضـون الشتاء فيهـا، وهذا دليـل بأن جـذب عدد كبيـر من الضيوف المؤمنين من خـلال التسامـح والأمن أجدى من الضرائب والأتاوات.

لقد كان تسـامح إبـراهيم باشـا الديني قـائماً من كـل الجوانب على حسـاب سياسي صحيح، لقد كان الأمر الذي أصدره من معسكره الواقع قرب عكا، ضمانة حب مسبق له، وتعلق ثمين من جانب كل السكان على اختلاف أديانهم.

إن تسامح إبـراهيم باشـا الديني، يكـاد يكون أهم وأرسـخ إجراء لـتحـولات هامة في المنطقة، وأساساً مدروساً بدقة لنفوذه لدى القبائل المسلمة في سورية.

سقوط عكا: استمر حصار عكا فصل الشتاء كله بلا جـدوى، وكان عبـد الله باشا يرد كل اقتراح للتسليم، حتى بعد فتح ثغرة. إنه ينوي عنـد الضرورة القصـوى تفجير الحصن، ولكنه لن يسلمه.

وكان محمد علي يبعث إلى معكسر ابنه إبراهيم بالرسول تلو الـرسول مؤكـداً حتمية الاستيلاء على الحصن مهما كلف الأمر، لأنه يستطيع وفي يده مفـاتيح عكـا أن يملي شروطه على الباب العالي في اسطنبول.

أما الباب العالي الذي كانت سياسته: (قتل العدو بالعـدو) فقد راح ينـظر من جهة بارتياح خفي أول الأمر إلى الاشتباك بين باشا مصر وبـاشا عكـا، وكان بـوسعه أن ينحيهما كليهما، أو ينحي أحدهما على الأقل، بعد أن ينهك أحدهما الآخر.

ولكن الباب العالي بدأ يبدي اندهاشه وتبرمـه، عندمـا بدأت تتـوضح لـه أن إبراهيم باشا يحرص على ترسيخ أقدامه في سورية، وأنه ليس ضيفاً عابراً، فأرسل إلى محمد علي يوصيه بوقف أعماله غير اللائقة، والتوجـه إلى الباب العـالي بالشكـوى على الجار، عندها يأمر الباب العالي عبد الله بـاشا بعـدم التدخـل في شؤون مصر لاحقاً[42].

فرد محمد علي في كتاب مفعم بالولاء، أن يتنازل لـه الباب العـالي عن عكا

(42) سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص 119.

ودمشق، بعد ان عدد خدماته للسلطان في الجزيرة العربية وفي المورة، مع تسديم الأتاوة في حينها، عندئذ قرر الباب العالي العمل للوقوف في وجه محمد علي في سورية، وسارت قوات من قيصرية وقونية ومرعش وسيواس[43] وغيرها من مناطق اسية الصغرى إلى حلب، للانضمام إلى قوات واليها محمّد باشا، ولكن هذه القوات غير المنظمة، زادت بإساءاتها من سخط السكان وغضبهم، فراحوا ينتظرون إبراهيم باشا منقذاً مخلصاً.

وغادر اسطنبول إلى سورية فيلق من خمسين ألف نفر، بما في ذلك قوة نظامية، وحرس يضم ثلاثين ألف مقاتل، ومئة وستين مدفعاً. بقيادة (السردار أكرم)[44] حسين باشا، فوصل سلسلة جبال طوروس[45] في أيار (مايو).

كما أبحر أسطول من الدردنيل[46] تحت قيادة خليل باشا، ليدعم العمليات الحربية من البحر، وحشد جيش غير نظامي من عشرة آلاف رجل، تحت قيادة عثمان باشا الحلبي عند مدينة حمص، على بعد مسيرة أربعة أيام من مدينة دمشق.

في هذه الفترة، اقتحم إبراهيم باشا أسوار عكا، واستسلم عبد الله باشا، وأجاب عن سؤال المنتصر عن السبب الذي جعله يريق دماء المسلمين بعناد عقيم؟ أجاب متنهداً: «وهل كنت أعلم أن والدي السلطان خذلني، في حين لم يتوقف والدك المبجل عن إرسال الجيش إليك؟!»[47]، إنه لعتاب غريب يوجهه إلى السلطان باشا تمرد عليه مرتين.

أرسل عبد الله باشا إلى مصر بحراً، فاستقبل باحترام من قبل محمد علي، لينتقل بعدها إلى اسطنبول، حيث عاش مغموراً يتقاضى راتباً من السلطان.

ويتابع إبراهيم باشا مسيرته شمالاً، ليفتح دمشق، وإبان صلاة الجمعة التي

---

(43) قيصرية وقونية ومرعش وسيواس، من المدن الهامة في آسية الصغرى، (تركية حالياً).
(44) (السردار أكرم) يقابل رتبة الفيلدمارشال.
(45) على شاطىء خليج الإسكندرون الشرقي.
(46) الدردنيل: المضيق الذي يفصل بحر مرمرة عن بحر إيجة.
(47) سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص 121.

تختتم بدعاء الإمام الخطيب في المسجد للسلطان، توجه الإمام إلى إبـراهيم باشـا بسؤال عمن يجب أن يـدعو لـه، استاء إبـراهيم بـاشـا، لأن هنـاك من يشكـك في إخلاصه للسلطان، وينظر إليه كمغتصب، فأمر بأن توضع رجلاه في الفلق ويضرب على الملأ، وبعد هذا الاستعراض المهيب لإخـلاص إبراهيم للسلطان، هـرع إلى تحطيم جيشه في حمص وبيـلان[48]. فحينما هبط (السـردار أكرم) حسين بـاشا من مرتفعات سلسلة جبال الأمانوس إلى الساحـل السوري، كـان خبر استيـلاء إبراهيم باشا على عكا أول خبر تلقاه في الطريق.

لقد سمح العثمانيون عمداً لإبراهيم باشا بالاستيلاء على عكا، للتخلص من عدو استعصىٰ عليهم، تطبيقاً لسياسة: «دار عدوك إلى أن تحل ساعـة قتله»، ولكن نتيجـة الحسابـات كانت خـاطئة، إن الصـلاحيـة التي أعـطيت لـولاة السلطان في المنـاطق، كانت عـاملاً لم يسـاعد على تـوطيد وحـدة الدولـة، هؤلاء الولاة كـانوا يعترفون بلا تحفظ بسلطة حاكمهم زعيماً روحياً للامبراطورية العثمانية، ولكنهم لم يخضعوا لحكمه إلا حينمـا يتفق هذا ومصـالحهم، أو تنعدم عنـدهم الوسـائل لشن الحرب عليها.

لقد كان على السلطان العثماني (محمود الثاني)[49] أن يفكر جـدياً في إلغـاء المبدأ الأساسي الـذي شكل بـالضرورة خـلال أكثر من أربعـة قرون أسـاس سلطة السلطان، أي ضد الصلاحية المعطاة لولاته في المنـاطق، وباشـر السلطان محمود الثاني ذلك، فقوى سلطة السلاطين، ولكن هل ينقذ الدولة؟

ومن حلب وصـل وفد إلى دمشق، ليمثـل أمام إبـراهيم باشـا، طالبـاً تحريـر مدينتهم من الباشوات العثمانيين، فتخلىٰ القائد العثماني حسين باشا عن السير إلى حلب، وهرع إلى ممرات سلسلة طـوروس الجبلية، بـوابة سـوريةَ القـديمة، لكي يغلق آسية الصغرى في وجه الهجوم المصري، خصوصاً بعد انهـزام قوات أرسلهـا

(48) مضيق بيلان، ومدينة بيلان: جنوبي الإسكندرونة في جبال الأمانوس، يصـل إليها طـريقان، طـريق من كِلِّس، وطريق من إنطاكيـة، ويقترب الـطريقان في سفح الجبل بحيث يفصـل بينهما نحـو ثلاثـة آلاف متر، ثم يلتقيان في المضيق جنوبي بيلان، فيصبحان طريقاً واحدة يصل إلى المدينة.

(49) محمود الثاني بن عبد الحميد الأول: [1808 -1839 م].

بقيادة الفريق محمد باشا في حمص[50].

وهزم إبراهيم باشا السردار أكرم حسين، فاستلم بذلك بوابة سورية (ممر بيلان)، ولم يهتم حسين بحماية بوابة كيليكيا في (غولق بوغاز)، هذا الشعب الذي يمتد مسافة عشرة كيلومترات ونيف، ويشرف على ممرات يستحيل اجتيازها وسط الصخور والمهاوي الرهيبة، وكانت تكفي كتيبة واحدة ومدفعان لسد الطريق إلى آسية الصغرى تماماً، حيث وزع السردار هنا وهناك فصائل رديئة غير نظامية تحت قيادة المدعو صادق باشا، أما هو فانسحب على عجل مع فلول جيشه المحطم إلى داخل آسية الصغرى، على الطريق المؤدية إلى قونية[51].

لقد طهرت طليعة الجيش المصري شِعب (غولق بوغاز)، لتندفع منه الحملة المصرية إلى قلب الامبراطورية، بعد أن غنم كميات ضخمة من المؤونة التي كانت قد وصلت عن طريق البحر مباشرة[52]، قبيل فرار حسين ومن معه، واقترح حينذاك على السردار أن يرمي بكل هذه المؤونة في البحر، لكي لا يستولي عليها إبراهيم باشا، إذ لا يستطيع إبراهيم تعقبه بدون مؤونة، فأجاب: «إن إتلاف النعم السخية التي يشبع بها الله جوع مخلوقات إثم شديد، يكفي أننا نخوض حرباً على المؤمنين، ولا لزوم لإماتتهم جوعاً»[53].

وفي تشرين الأول (أكتوبر) اجتاز إبراهيم باشا مع الجيش جبال طوروس متجهاً إلى قونية، وفي الطريق خضع له السكان بطيبة خاطر، إن الانضباط الصارم للجيش المصري، وعدل إبراهيم إزاء السكان الذين أرهقتهم فوضى الجيش العثماني، أكسباه سمعة حميدة في كل آسية الصغرى، وضمنا له تعاطف الشعب[54].

---

(50) سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص 127.

(51) قونية في آسية الصغرى، وهي (أيكونيوم) القديمة.

(52) لم يساهم الأسطول تحت قيادة خليل باشا في أية عمليات حربية بعد معركة بيلان.

(53) سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص: 128.

(54) حتى إن امرأة في دمشق، اشتكت لإبراهيم باشا جندياً اعتدى عليها، عندما أخذ من يدها إناء فيه لبن اشترته لطفلها وشربه، فجمع إبراهيم باشا الجند، لتمر المرأة أمامهم، وعندما عرفت الجندي=

ولخوض المعركة الفاصلة، سار الصَّدر الأعظم (رشيد محمد باشا) بجيش يضم 55 ألف رجل، وفي حوزته 90 مدفعاً، مع احتياطي من خيرة المقاتلين، قوامه 20 ألف رجل، مع 20 ألف رجل ـ هم الحرس السلطاني ـ يرابطون على الساحل الآسيوي، على مقربة من العاصمة، مشكلاً حامية للعاصمة ذاتها، وفي حال الهزيمة لن تتمكن قوات الحرس الاحتياطي إنقاذ اسطنبول ذاتها، لذلك توجه السلطان محمود الثاني إلى روسية طالباً منها الحماية إذا خسر هذا الاشتباك الحاسم الأخير، فأشارت الحكومة الروسية بعد الانعطاف الخطير في تمرد محمد علي، على الدول الأخرى بضرورة كبح جماح المنتصر، وكان يكفي حينذاك ظهور الأسطولين الإنكليزي والفرنسي عند شواطىء سورية أو مصر، وإطلاقه تهديداً واحداً للجم مخططات محمد علي وطموحاته.

ولكن الدول الغربية نظرت حينذاك بلا مبالاة إلى أحداث الشرق، فخيمت سحب الخطر على العاصمة، وحينما دخلت مضيق البوسفور سفينة عسكرية[55] يستقلها الجنرال مورافيوف[51] حاملاً رد الامبراطور نيقولا الأول[57] على طلب السلطان، واقتراحاً بتقديم دعم معنوي ومادي من روسية، عادت الدول الغربية إلى رشدها، وأخذت تنظر بحسد وتوجس إلى ما تقدمه روسية من حماية.

وفي 9 كانون الأول (ديسمبر) خسر (رشيد محمد باشا) المعركة الحاسمة قرب قونية، ووقع في الأسر عند أسوار قونية المهد المقدس لعظمة السلاطين الأوائل، والتي انطلقت منها قبيلة عثمان الفتية في يوم من الأيام، مفعمة بالحياة والقوة، إلى مآثرها الجبارة على هدى نجم انتصاراتها المتألق.

= المعتدي، بَقَر إبراهيم باشا بيده بطن الجندي، ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه خرق القانون، والاعتداء على الناس وممتلكاتهم.

(55) السفينة الحربية: (شتاندارت)، فرقاطة البحر الأسود.

(56) موارفيوف نيقولاي نيقولا يفيتش: [1794 -1866 م]، دبلوماسي وشخصية عسكرية، ساهم في الحرب الروسية ـ الفارسية 1826 -1828، وفي الحرب الروسية ـ التركية عامي 1828 -1829 م، وقاد في سنة 1833 م الفصيلة الروسية التي أرسلت إلى السلطان لمساعدته ضد محمد علي.

(57) نيقولا الأول: [1796 -1855] قيصر روسية: 1825 -1855.

هرع السلطان محمود الثاني فور تلقيه خبر هزيمة جيشه في قونية إلى الوزير المفوض الروسي (بوتينيف)[58] يطلب الجيش والأسطول المساعدين اللذين وعد بهما لتغطية عاصمته المهددة، وفي الوقت ذاته أرسل خليل باشا الذي اشتهر بتعاطفه مع محمد علي إلى مصر، لفتح المفاوضات.

وبناء على رغبة السلطان هرع الجنرال مورافيوف كذلك إلى مصر ليبدد بصلابة الضباب الذي أدخله نجاح السلاح في عقل محمد علي، وليعزز اقتراحات الباب العالي الذي تخلى له عن كل سورية الجنوبية، وكذلك أرسل عقيد الأركان العامة (ديوغاميل)[59] إلى معسكر إبراهيم باشا لينصحه بالتوقف وانتظار نتيجة المفاوضات السلمية بين الباب العالي وأبيه.

ومرد هذه الجهود الروسية وهدفها، بقاء الدولة العثمانية الضعيفة (الرجل المريض)، وألا يتربَّع على مضيقي البوسفور والدردنيل حاكم قوي، يتحكم بمرور سفنها من البحر الأسود إلى البحر المتوسط[60].

وأصرت الدبلوماسية الفرنسية من جانبها على إنهاء هذه القضية عن طريق

---

(58) بوتينيف أبوليناري بيتروفيتش: [1787 -1866 م]، دبلوماسي بدأ العمل في وزارة الخارجية في عام 1804، عُين في سنة 1816 سكرتيراً للسفارة الروسية في اسطنبول، حيث بقي حتى سنة 1821، وأصبح منذ 1830 سفيراً في اسطنبول، وشغل منصب وزير مفوض في رومة من سنة 1843 -1856، ثم عُين عضواً في مجلس الدولة، وأرسل مجدداً وزيراً مفوضاً إلى اسطنبول، حيث بقي حتى سنة 1858.

(59) ديوغاميل الكسند أوسيبوفيتش: [1801 -1880 م] شخصية عسكرية، عُين 1827 سكرتيراً ثانياً للقسم العسكري للسِّفارة الروسية في أسطنبول، وأصبح في سنة 1833 قنصلاً عاماً في الإسكندرية وبقي حتى 1837، ومن سنة 1837 إلى عام 1841 عمل سفيراً في طهران، وبعد 1843 لم يعد عمله مرتبطاً بشؤون الشرق.

(60) وهناك رأي يقول: إن الحكومة العثمانية لم تقبل المساعدة الروسية، ولكنها احتفظت لنفسها بحق الاستفادة من المساعدات فيما بعد، وعندما غادر إبراهيم باشا قونية وتوجه إلى العاصمة، طلب السلطان من السفير الفرنسي تقديم المساعدة مجدداً وعندما لم يتلق منه ضمانات أكيدة لوقف هجوم المصريين، توجه في 2 شباط (فبراير) 1833 إلى السفير الروسي بوتينيف بطلب إرسال عمارة من البحر الأسود، وفيلق مشاة من 25 -30 ألف مقاتل. (هامش ص 138: سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني).

وساطتها، وتكفلت للباب العالي بألا يتقدم إبراهيم باشا، وطلبت بإصرار وعن طريق التهديد ألا تستدعى القوات الروسية لمساعدة الباب العالي، الّذي كان يعلم، أن القنصل الفرنسي في الاسكندرية (المسيو ميمو)، لم يتوقف في الوقت ذاته عن تشجيع محمد علي باسم حكومته[61].

وعلى الرَّغم من ذلك، فقد تحرك إبراهيم باشا من قونية مقترباً من العاصمة العثمانية، فماذا أراد من ذلك؟

هل أراد أن يطيح بالسلطان؟

أم أراد تعزيز مطامع أبيه فقط، ويرغم السلطان على الموافقة على كل ما يأمره به؟

وصل مورافيوف إلى مصر، قبل خليل باشا بعدة أيام، وتمكن من تهدئة محمد علي واستمالته إلى المفاوضات، معلناً له أنه سيجد في اسطنبول القوات البحرية والبرية الروسية، وبالفعل دخلت مضيق البوسفور في 8 شباط (فبراير) سنة 1833 الفصيلة الأولى من أسطول البحر الأسود، والمكونة من أربع سفن وأربع فرقاطات وحراقتين، تحت قيادة اللواء البحري (كوماني)، وهذا الخبر أوقف إبراهيم باشا في كوتاهية، على بعد 250 كيلومتراً من البوسفور.

كما وصل إلى اسطنبول السفير الفرنسي الجديد الأميرال روسين، وبدأ يهدد بقطع العلاقات مع الباب العالي إذا لم يتخل عن العون الخارجي، وتعهد باسم حكومته أن يرغم إبراهيم باشا على التراجع إلى ممرات جبال طوروس، ومحمد علي على القبول بالشروط التي اقترحها خليل باشا، وكان هذا الطلب غريباً، فقد كان ينبغي لإرضاء السفير، سحب الأسطول الروسي الذي دعاه السلطان، وتفضيل الحل الدبلوماسي على التدخل المسلح حينما كان يجب إنقاذ الأمبراطورية من فناء أكيد، فجيش إبراهيم باشا يسلك الطريق المؤدية إلى العاصمة.

---

(61) سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص 135، ولذلك فكر محمد علي بالإبحار بأسطوله إلى اسطنبول مباشرة، والظهور هناك في وقت واحد مع ابنه بحجة أن إبراهيم لم يجد في قونية مؤونة لجيش، فحملها أبوه إليه بحراً إلى البوسفور.

لم يستمع إبراهيم باشا، ولا أبوه، إلى تعليمات السفير الواثقة، وفي خلال آذار (مارس)، ونيسان (إبريل) دخلت البوسفور فصيلتان أخريان من سفن أسطول البحر الأسود، تحمل جيش إنزال قوامه 12 ألف رجل، رابط في معسكر على الساحل الآسيوي للبوسفور في وادي (هنكيار أسكيلاسي).

استلم الجنرال مورانيوف الذي رجع من مصر ـ بعد بدء المفاوضات بين محمد علي وخليل باشا ـ قيادة جيش الإنزال، وفي أيار (مايو) سنة 1833 م وصل الجنرال (أديوتانت الكونت أورلوف) بصلاحيات سفير فوق العادة، وقائد عام للقوات البحرية والبرية، ومن الواضح أن الإجراءات الحاسمة التي اتخذتها روسية في تلك الظروف الحرجة، أنقذت العاصمة من السقوط بيد الباشا المصري الطموح.

طالت المفاوضات بين الباب العالي ومحمد علي، واضطر إلى التخلي عن أطماعه في احتلال العاصمة، ورضي بسورية، فوقعت المعاهدة في كوتاهية في مقر قيادة المصريين بتاريخ 4 أيار (مايو) 1833 م، فتراجع إبراهيم باشا إلى جنوبي سلسلة جبال طوروس.

وليس هذا الاهتمام الأوروبي بحماية اسطنبول من السقوط بيد محمد علي، حباً بالسلطان ودولته، إنه حماية لأوروبة ذاتها، فاسطنبول مفتاح شرقي أوروبة، كما أن سبتة[62] مفتاح غربها، وهيهات أن يسمح الأوروبيون أن يستلم مفتاح شرقي أوروبة رجل قوي ـ مع جيش فتي بتسليح حديث ـ من جديد.

سبع سنوات: كانت سياسة إبراهيم باشا تهدف إلى انتزاع أكثر الموارد الممكنة من القبائل الواقعة تحت سلطته، بغية إنجاز أكثر المآرب طموحاً، لذلك

---

(62) سبتة مدينة على مضيق جبل طارق على الساحل الإفريقي، مقابل الجزيرة الخضراء على الشاطىء الأندلسي، (انظر: معجم البلدان: 182/3): سبتة أقرب ما بين البر الإفريقي والأندلس، ونبه المبشر دامون لل Lull منذ سنة 1310 م إلى أهمية المدينتين، وأوصى باحتلالهما لاتخاذهما قاعدتين لشن الهجمات ضد العرب المسلمين، انظر:

Allison Peers, Roman Lull: A Biography, London, 1929, P. 351.

أخـذ يطبق بعنف النـظامين الإداري والمالي المصـريين، فقمع الميـول الفوضـوية للقبائل، ووزع بالعدل عبء الضرائب التي كانت حتى ذلك الحين موضـوعة تحت رحمة الباشوات، والحكام المحليين، وكان إبراهيم باشا يتمتـع إلى جانب مـواهبه العسكرية بقدرات كبيرة في مجال الاقتصاد، فجعل وقته لاستثمار رؤوس أمواله في المضاربات التجارية والصناعية.

كما فرض إبراهيم باشا المضطر إلى إبقـاء جيش جرار في سـورية، التجنيـد الإجبـاري، فشبت ثورة شملت كـل فلسـطين في ربيـع سنـة 1834 م، بعـد إعـلان السُّلطات المصـرية قـراراً يقضي بجمع الأسلحة والمجندين هنـاك، فأبـاد الثـوار الحـاميتين المصريتين في نـابلس والخليل، وحـاصـروا الـوحـدات المصـريـة في القدس، ولم يرفع الحصار عنها إلا بعد الـوعد بـإلغاء التجنيـد الإجباري، بيـد أن الحكومة المصرية لم تف بوعدها، فتجددت الثورات[63].

ولم يستـطع سكان المـدن تحاشي التجنيـد الإجباري، فـاشتـد الـرعب من شبحـه، وازدادت كراهيـة الشعب إزاء كـل الإصـلاحـات التي وإن كـانت مـواتيـة للمنطقة من نواح كثيرة، إلا أن ثمنها كان يدفع ضريبة دم مرهقة جداً وباهظة، حتى إن 100 ألف سوري هربوا من قسوة الحكم المصـري، وهذا التقلص للسكـان كان محسوساً بالنسبة إلى الزراعة والصنـاعة أكثـر من التجنيد نفسـه بما لا يقـاس، ولم يستـطع إبراهيم بـاشا مـع كل صـرامته، أن يجنـد في سـوريـة على امتـداد خمس سنوات: [1833-1838] أكثر من 35 ألف رجل[64].

ويمكن تلخيص أسباب الثورات في سورية ضد حكم إبراهيم باشا بما يلي:

وعد إبراهيم باشا السوريين بإعفائهم من التجنيد وبتخفيض الضـرائب، وألا يكلفهم إلا بدفع الضرائب الحكوميـة المقررة، وبـر بوعـده في السنوات الأولى من حكمـه، فخفف عنهم بعض الأعباء المـالية، وأخـذ في تنشيط الزراعـة والتجارة، فشعر السكان بالاطمئنان وركنوا لحكم إبراهيم باشا.

---

(63) سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص 143.

(64) تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص 134، بحث: (الاستياء في البلاد، انتفاضات ضد التجنيد).

ولا يسع المنصف إلا الاعتراف بأن المبادىء التي شاء إبراهيم باشا أن يؤسس عليها الإدارة والقضاء في سورية كانت صحيحة بوجه عام، لأنها كانت ترمي إلى تنظيم الأعمال، وتوزيع الاختصاص بين هيئات مختلفة، ومنع الاستبداد بتقييد الحكام وغيرهم من الموظفين بالنصوص القانونية، وتدريب الأهلين على إدارة شؤونهم المحلية، غير أن جهل الحكام كيفية تطبيق القوانين، وفطرتهم الاستبدادية، وعدم وجود مراقبة فعالة على أعمالهم، وعدم مراعاة تقاليد البلاد وعاداتها، وكثرة الاضطرابات في البلاد، حالت دون بلوغ الغاية التي وضعت تلك القوانين من أجلها، ولإبراهيم باشا فضل خاص في السنين الأولى بعد الفتح في ضبط الأحكام، وشدة مراقبة الحكام، وإجراء العدل بين الأهلين، وقد كان شديد الوطأة على المستخدمين الذين يحيدون عن السبيل القويم، فعاقب كثيرين منهم بالطرد والضرب والحبس للاعتداء على أهل البلاد، أو عدم النزاهة، أو غير ذلك مما يخرج عن جادة الاستقامة، فلو استمرت حكومة إبراهيم باشا في سورية ناهجة هذا المنهج القويم الحكيم، لملكت قلوب السوريين، خصوصاً بعد إطلاق الحرية الدينية[65].

حتى المدارس التي أشادها إبراهيم باشا، كانت في معظم الأوقات مشتغلة بتسكين الاضطرابات وإخماد الثورات، ومقاومة الدسائس والاعتداءات الداخلية والخارجية، على أن قيام المدارس في سورية مهد السبيل لنهضة علمية أدبية، كما أن إرسال بعض الشبان لدراسة الطب في مصر، واستخدام بعض السوريين في حكومة محمد علي أنشأ صلة أدبية دائمة بين سورية ومصر، وأدخلت حكومة إبراهيم باشا روحاً علمية إلى البلاد، فأنشأت محجراً صحياً في بيروت، وبذلت اهتماماً يذكر في الأمور الصحية، وكانت تجري فيها حسب مشورة الأطباء الصحيحة، كما قامت في دمشق، بإنشاء مصارف للمياة الراكدة[66].

وعندما زار المارشال مارمون (الدوق دي راجوز) سورية سنة 1834 م،

---

(65) إبراهيم باشا في سورية، سليمان أبو عز الدين، ص 139.

(66) المرجع السابق، ص 315، بتصرف واختصار.

أعجب بما رآه من السَّكينة والأمن فيها، وكتب في رحلته يقول: «إذا بقيت أعمال محمد علي، وبقي الأمن الذي بسطه فيما فتحه من البلاد كما صار إليه الآن من الاستقرار الذي يدعو إلى الإعجاب، فإن حالة هذه البلاد سينبه شأنها، وستتطور تطوراً كبيراً»[67].

ويقول المسيو لويس بلان، المؤرخ الفرنسي في كتابه (تاريخ عشر سنوات): «إذا أردنا أن نعرف ما أفادته سورية من انتقالها من الحكم العثماني إلى حكم المصريين، فما علينا إلا أن نلقي نظرة على سهول أنطاكية التي اكتست بأشجار الزيتون، وضواحي بيروت التي كثرت فيها الكروم، والنشاط الذي انبعث في حلب ودمشق، صحيح أن محمد علي أظهر جنفاً[68] وقسوة في حكم سورية، ولكن في ظل هذا الاستبداد العارض الذي كان ضرورة ولزاماً حيث سادت الفوضى في تلك البلاد، قد نالت سورية النظام والعمران»[69].

هذه الحال ما لبثت أن تبدلت لما أصدره محمد علي باشا إلى ابنه في أواخر سنة 1833 م، وأوائل سنة 1834 م، من الأوامر التي أثقلت كاهل الأهلين بأعباء فادحة، وهي:

1" ـ احتكار الحرير في البلاد السورية.

2" ـ أخذ ضريبة الرؤوس من الرجال كافة على اختلاف مذاهبهم.

3" ـ تجنيد الأهالي.

4" ـ نزع السلاح من أيديهم[70].

لقد تذمر السكان من هذه الإجراءات وتبرموا، لأن احتكار الحكومة للحرير من شأنه إلحاق الضرر بمنتجيه، ومنع تنافس التجار على شرائه وحرمان المنتجين

---

(67) رحلة المارشال الدوق دي راجوز: 28/3.

(68) الجنف: الميل والجور، [اللِّسان: جنف].

(69) تاريخ عشر سنوات: 421/5، وانطاكية التي وردت في النص اتخذها إبراهيم باشا مقره العام لموقعها الحربي الهام.

(70) عصر محمد علي، ص 262 وما بعدها.

مكاسبهم منه، ونفروا من ضريبة الرؤوس وخاصة المسلمين، لأنهم ما كانوا ملزمين بها من قبل، وزاد من نفورهم تسخير الحكومة للأهالي في الأعمال العامة.

وكان التجنيد ونزع السلاح أهم الأسباب المباشرة التي أفضت إلى الثورة، فقد نفذ التجنيد بطريقة قاسية تثير الخواطر، وكان كثير من المجندين يرسلون إلى جهات لا يصل إلى ذويهم شيء من أخبارهم فيها، وتوج هذه الإجراءات التي سببت الثورات نزع السلاح، الذي كان معظم الأهالي يحملونه، ليدفعوا به سطوات البدو وعدوانهم، فانتزاع السلاح من أيديهم أمر لا تقبله نفوسهم عن طاعة واختيار.

الحرب السورية الثانية: [1839 م]:

ما فتئت الدولة العثمانية بعد هزيمتها في معركة (قونية)، وإبرامها اتفاق (كوتاهية)، تبذل كل ما وسعها لاسترجاع سورية وإقليم أضنة إلى حوزتها، وتصميمها على ذلك بدأ عقب هزيمتها في قونية مباشرة[71]، ولم يؤخرها عن امتشاق الحسام حتى سنة 1839 إلا شعورها بأنها أضعف جنداً من مصر، فأخذت تتحين الفرصة المناسبة للثأر، ولم تنقطع طوال هذه المدة عن تحريض سكان سورية على الثورات، وخلع أيديهم من الطاعة لمحمد علي.

وعندما توفي رشيد باشا سنة 1836، خلفه في قيادة الجيش العثماني محمد حافظ باشا، أحد قواد العثمانيين المشهورين في ذلك العصر، وفي خلال ذلك حدثت مفاوضات بين العثمانيين ومصر لتسوية الخلاف بينهما بطريقة ودية، فأوفد السلطان محمود الثاني سنة 1837 مندوبه (صارم أفندي) ليفاوض في ذلك محمد علي، لكن هذه المفاوضات أخفقت، إذ لم يتفق الطرفان على شروط يقبلانها.

ولما أخفقت تلك المفاوضات، ورأى محمد علي دسائس السلطان تزداد في

---

(71) حشدت الدولة العثمانية سنة 1834 جيشاً في (سيواس) - إلى الشرق من أنقرة - تأهباً للزحف على سورية عند سنوح الفرصة، وعهدت بقيادته إلى رشيد باشا قائد الجيش العثماني الذي أسر في واقعة قونية، فأخذ يستعد للزحف آملاً أن يظفر بالجيش المصري، فيمحو ما لحقه من العار والهزيمة في (قونية) ولكن الفرص لم تتح له حتى عاجله الأجل 1836 م.

سورية، اعتزم إعلان الاستقلال[72]، ليقطع آخر سبب يربط مصر بالدولة العثمانية، واستدعى قناصل الدول في مصر، وأعلمهم بعزمه هذا في أيار (مايو) سنة 1838 م، وكان محمد علي يعتقد أن الدول الأوروبية لا تعارضه في إعلان الاستقلال أسوة بما فعلته حيال اليونان، إذ آزرتها في تحقيق استقلالها وانفصالها عن الدولة العثمانية وتأييدها في مطالبها القومية، ولكن الدول الأوروبية تنظر إلى مصر بغير العين التي تنظر بها إلى اليونان، فاعترضت على ما عزم عليه محمد علي، وحذرته من عواقب قراره، وبذلك بدا تحيزها للعثمانيين جلياً، مما جرأ السلطان محمود الثاني على التحرش بمحمد علي، فأدى ذلك إلى وقع الحرب السورية الثانية.

وكان سفير إنكلترة في اسطنبول (اللورد بونسونبي) يحرض السلطان على التشدد في شروطه، مما أدى إلى إخفاق المفاوضات، وعقدت معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية سنة 1838، من شروطها إلغاء الاحتكار في جميع أنحاء السلطنة العثمانية، وكان المفهوم أن هذه المعاهدة تسري على مصر لأنها كانت إلى ذلك الحين جزءاً من السلطنة العثمانية، ووافقت فرنسة على هذه المعاهدة في تشرين الثاني (نوفمبر) 1838 م، لأن ظاهرها يوافق المبادىء الإنسانية، ولم يكن من سبيل إلى رفض مثل هذه المعاهدة[73].

وفطن محمد علي إلى أن المقصود من وضعها هو إحراجه، فلم يعلن اعتراضه عليها، ولا قبوله إياها، وفي غضون ذلك بذلت الدول الأوروبية مساعي عدة لحل الخلاف دبلوماسياً، خصوصاً وقد أخذت تحركات الجيش العثماني تزداد نشاطاً بالقرب من التخوم السورية.

حصن المصريون مضيق (كولك) من مضايق جبال طوروس تحصيناً منيعاً، إذ هو طريق الزحف على سورية من ناحية الأناضول، فشيدوا فيه القلاع المحكمة، وركبوا فيها المدافع الضخمة على الأساليب الهندسية الحديثة، وبلغ عدد المدافع

---

(72) كادلفين وبارو، سنتان من تاريخ الشرق: 22/1 و 46.

(73) عصر محمد علي، ص 271، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص 137.

التي ركبها المصريون في قلاع المضيق ونواحيه 115 مدفعاً[74]، وراح إبراهيم باشا يرقب حركات الجيش العثماني، الذي كانت طلائعه ترابط في عينتاب وكِلِّس بقيادة حافظ باشا. ويتلقى تعليمات والده، الذي عرف أنها الحرب لا محالة، فسير الجند إلى سورية ومعهم الذخائر، وعهد إلى وزير الحربية أحمد باشا المنكلي أن يلحق بإبراهيم باشا ليعاونه في الحرب المنتظرة[75]، فكان سفر المنكلي إعلاناً بقرب وقوع القتال، فتدخل المسيو كوشليه، قنصل فرنسة العام لوقف سفر وزير الحربية، فطلب إليه محمد علي أن تعطيه الدول موثقاً ألا يزحف الجيش العثماني على سورية، وفي مقابل ذلك يمنع سفر وزير حربيته، بل ويستقدم إبراهيم باشا أيضاً، فضمن له القنصل الفرنسي ذلك، بناء على خطاب بهذا المعنى جاءه من سفير فرنسة باسطنبول، وكان الحديث بحضور قنصل النمسة، فالتفت إليه محمد علي وسأله: أتؤيد الرسائل الواردة له من السفير الفرنسي وما يقوله قنصل فرنسة؟ فأجاب بالنفي، فلم يسع محمد علي إلا أن صارح القنصلين بأنه إزاء هذا التضارب يرى من واجبه أن يتخذ وسائل الأهبة والاحتياط، وأنفذ من فوره وزير الحربية إلى حلب، فوصل إليها بعد تسعة أيام من مغادرته مصر، وكانت الحرب قاب قوسين أو أدنى[76].

احتشدت طلائع الجيش العثماني في قرية نصيبين[77] وحولها، وأخذ حافظ باشا يستعد للزحف، فاحتلت طلائعه من القرى ما حول مدينة عينتاب واجتازت

---

(74) إحصاء المسيو أوديفير في مباحثه عن (الحكم المصري في بلاد القرمان)، التي نشرت بمجلة الشرق الفرنسية سنة 1868 م، ص 590.

(75) سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص 184.

(76) عصر محمد علي، ص 273.

(77) تقع قرية نصيبين على الطريق الواصل بين بيرة جك (البير) وميناء الإسكندرونة، وموقعها غربي بيرة جك القائمة على الضفة اليسرى لنهر الفرات، وهي غير نصيبين التي بالجزيرة السورية، جاء في (معجم البلدان 289/5): «ونصيبين أيضاً قرية من قرى حلب».

ويذكر بعضهم اسم هذا الموقع (نزيب)، ولا محل لأن تستبدل نصيبين باسم (نزيب) وهو الإسم الأجنبي المحرف عن نصيبين، ولم يرد في أي معجم من المعاجم العربية، ولا مبرر لترك الاسم العربي كما ورد في معاجمنا.

سرية من الجيش العثماني نهر الساجور[78]، فتخطت بذلك الحدود المرسومة في اتفاقية كوتاهية، وفي منتصف حزيران (يونيو) جاء كتاب محمد علي لابنه بألا يكتفي بإرجاع العثمانيين إلى الحدود، بل عليه حربهم وسحق جيشهم ما داموا لم يراعوا العهود والمواثيق، فاستعد إبراهيم باشا لمهاجمة الجيش العثماني الذي احتشد في نصيبين، والذي بلغ تعداده 38 ألف مقاتل، ويحتل مواقع حصينة، ولم يكن ينقصه القواد الأكفاء، لأن فريقاً من الضباط الألمان، وعلى رأسهم القائد الشهير البارون (فون مولتكه)[79]، كانوا يرافقون القواد العثمانيين، وهم الذين تولوا تحصين نصيبين حتى جعلوها من أمنع المواقع الحربية.

أما الجيش المصري فكان عدده أربعين ألف جندي[80]، فالجيشان كانا متقاربين من جهة العدد، لكن الجيش المصري كان يفوق جيش العثمانيين في النظام وبراعة القيادة، ودربة جنوده، ومرانهم على القتال، وثقتهم بأنفسهم وبقوادهم الذين خاضوا وإياهم المعارك، ورفعوا معاً علم النصر من قبل[81].

وفي صبيحة 24 حزيران سنة 1839 م بدأت معركة نصيبين التي أسفرت عن خسارة العثمانيين، وانتصار إبراهيم باشا، الذي قضى في هذه المعركة على قوة العثمانيين الحربية، فكان وقعها أليماً جداً على العثمانيين، وتوفي السلطان محمود الثاني في أول تموز (يوليو) سنة 1839 قبل أن يبلغه نبأ انكسار جيشه، إذ كان على فراش الموت، وخلفه عبد المجيد الأول[82] في الوقت الذي تزلزلت فيه قوائم السلطنة من ضربات إبراهيم باشا، ولم تكن سن السلطان الجديد تتجاوز السابعة عشرة، فلم يدر كيف يتصرف، ولا كيف يتجه بين العواصف التي هبت على

---

(78) نهر الساجور: ينبع بالقرب من عينتاب، ويمر بها ويصب في الفرات، وهو الحد الفاصل بين أملاك محمد علي والدولة العثمانية.

(79) فون مولتكه: Moltke: [1800-1891]، قائد ألماني، درب الجيش العثماني وأعاد تنظيمه بعد اتفاقية كوتاهية وانهزام الجيش العثماني قبالة الجيش المصري، قاد الجيش الألماني بعد ذلك في الحرب مع فرنسة: 1870-1871 م.

(80) إحصاء كادلفين وبارو في كتابهما: (سنتان من تاريخ الشرق): 259/1.

(81) عصر محمد علي، ص 275.

(82) عبد المجيد الأول: [1839-1861].

عرشه. أما إبراهيم باشا فقد اتجه شمالاً ليفتح عينتاب، ومرعش، وأورفة.

وفي الوقت ذاته سلم أحمد باشا فوزي الأسطول العثماني إلى محمد علي، بعدما عين السلطان عبد المجيد خسرو باشا صدراً أعظم، وكان بينه وبين أحمد باشا فوزي عداء قديم، وهكذا تسلم محمد علي الأسطول العثماني الضخم، «في تلك الفترة كان طالع محمد علي قد بلغ الأوج»[83].

قدم ممثلو الدول الخمس الكبرى في اسطنبول: (إنكلترة وفرنسة وروسية والنمسة وبروسية) في 27 تموز (يوليو) 1839 مذكرة[84] يطلبون بها من السلطان أن لا يبرم أمراً في شأن المسألة المصرية إلا باطلاعهم واتفاقهم.

قبل السلطان هذه الوساطة بارتياح، ولكن محمداً علياً اعترته الكآبة عندما أبلغ بمضمون المذكرة (15)، وأدرك أن إنكلترة منذ سنوات تنظر بقلق إلى قوته المتعاظمة، وهي تطمح إلى القضاء عليه، وطرده من سورية، حفاظاً على طريق الهند.

ولكنه فرح بالخلاف بين الوسطاء، ففرنسة تميل إليه، ويتعاطف شعبها معه منافسة لإنكلترة، لذلك، لم يقم بأية تنازلات.

معاهدة لندن الأولى: 15 تموز (يوليو) 1840 م:

وقع هذه المعاهدة كل من روسية والنمسة وإنكلترة وبروسية والباب العالي العثماني، وعلى الرغم من ممانعة فرنسة، قررت الدول الكبرى كبح جماح محمد علي بالقوة، ووضع حدود لطموحه المفرط.

---

(83) قالها قسطنطين بازيلي، وهو شاهد عيان، وصف بالتفصيل خيانة الأميرال العثماني، كما وصف الأسطول العثماني بعد تسلمه في ميناء الإسكندرية، فقد كان بازيلي في طريقه لزيارة محمد علي في الإسكندرية، (سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص 208 وما بعدها).

(84) وهي المذكرة المعروفة تحت رقم 15، تاريخ 27 تموز (يوليو) 1839، وهي اقتراح مترنيخ وزير النمسة الأكبر، ووجهة نظره أن يحول دون انفراد روسية بالتدخل في المسألة الشرقية، وإرغام فرنسة على العمل سوية مع الدول الكبرى.

وبناء على مضمون معاهدة لندن الأولى، اقترح الباب العالي على محمد علي أن يحكم مصر وراثياً، ويدير مدى الحياة جنوبي سورية (أي فلسطين)[85]، على أن يوافق على هذا الاقتراح، الذي أيده ممثلو الدول الكبرى في غضون عشرة أيام، وأن يوجه في خلال العشرة أيام هذه الأوامر إلى جيشه بإخلاء بقية سورية وأضنة، وكريت[86] وشبه جزيرة العرب، مع إرجاع أسطول السلطان فوراً.

وفي حال رفض محمد على لهذا الاقتراح، يقتصر الباب العالي على تقديم مصر ليحكمها وراثياً، ويمنح مدة عشرة أيام أخرى لقبول هذا الشرط، تاركاً لنفسه في حال رفض محمد علي ثانية حرية العمل بالشكل الذي يراه بعد مباحثات تمهيدية مع الدول الكبرى.

وبما أن سورية الشمالية ستعاد إلى السلطان على أي حال، فقد كان بالإمكان في خلال المحادثات مع محمد علي، وقبل انقضاء المواعيد المقررة، أن تبدأ العمليات الحربية عند الشواطىء اللبنانية، وتنقطع المواصلات البحرية بين سورية ومصر، أما في خصوص تهديد محمد علي المألوف بحملة إبراهيم باشا على آسية الصغرى، فقد اتفقت الدول المتحالفة، على أن تحتل أساطيلها في حال تنفيذ هذا التهديد، البوسفور والدردنيل لحماية العاصمة العثمانية، وكان فيلق من القوات الروسية مستعداً لعبور البحر الأسود من أوديسا وسيباستوبول، والتقدم لملاقاة إبراهيم باشا.

أوصل خبر معاهدة لندن إلى سورية (نابير)(*) الإنكليزي، الذي ظهر في (آب أغسطس) مقابل بيروت فجأة، مع أربع سفن وفرقاطة، لقد كان يأمل بظهوره إثارة لهيب تمرد جديد في لبنان، ويبعث الوجل في القوات المصرية في سورية ويربكها.

---

(85) وفق خط يمتد من رأس الناقورة على البحر المتوسط (شمالي عكا، وجنوبي صور) إلى بحيرة طبرية، فنهر الأردن إلى البحر الميت، إلى العقبة على البحر الأحمر.

(86) وهي في بعض المراجع: كاندي Candie، وكاندي مدينة في كريت، اسمها اليوم هيراكليون: Héraklèion.

(*) شارل نابير Napier.

رفض محمد علي مقررات مؤتمر لندن، وقرر الذود بالسيف عما أخذه بالسيف[87]، خصوصاً وجيشه في سورية 75 ألف رجل، وقد زود بكل ما يلزم لمدة سنة واحدة، معولاً الكثير على نفوذ الأمير بشير الشهابي بين القبائل اللبنانية، ومؤمناً بشفاعة فرنسة ونصرتها، منتظراً ـ من ساعة إلى أخرى ـ العون منها للوقوف ضد الدول المتحالفة[88]..

ولكن.. على الرغم من كل حجج فرنسة، حول نقص الوسائل لانتزاع سورية من السلطة المصرية، حسبت وزارات الدول الكبرى باتقان شديد الوسائل المادية الضرورية لهذا، إن إبراهيم باشا الذي كان يقارن نفسه بالإسكندر المقدوني، ويضع نفسه فوق بونابرت، لأنه احتل سورية، وتوغل في قلب آسية الصغرى بحملتين مع جيش قوامه 20 ألفاً، أدرك بالتجربة تداعي مأثرته، حينما لم يستطع بجيش من 70 ألفاً الذود عن غنيمته أمام حفنة من القوات المتحالفة، وأمام فيض الكراهية الشعبية[89].

بدأت إنكلترة والنمسة مع العثمانيين بعمليات حربية، ضد محمد علي، وفي 11 أيلول (سبتمبر) 1840 أنزل الأسطول الإنكليزي قوات مسلّحة في شمالي بيروت، وشرع الإنكليز والنمساويون بتسليح الجبليين، وإمدادهم بالمدربين والأموال، وقامت انتفاضة بقوة جديدة ضد إبراهيم باشا في لبنان، فوجد الجيش المصري نفسه في وضع حرج.

واعتمد محمد علي على معونة فرنسة، إلا أنها لم تفعل شيئاً سوى التهديد بالسلاح، ولم تمد مصر بأية مساعدة فعالة، وأدركت الحكومة الفرنسية بأن المساعدة المسلحة للدفاع عن مصر تنطوي في ثناياها على حرب أوروبية واسعة النطاق، علماً أن فرنسة ستضطر إلى الصراع وحيدة وفي آن واحد ضد بروسية في القارة الأوروبية، وضد إنكلترة في البحار، لذلك.. عندما وجدت نفسها أمام هذا

---

(87) تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص 141.

(88) سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص 233.

(89) المرجع السابق، ص 235.

الوضع، لم تخاطر للقيام بحرب أوروبية واسعة، وتركت مصر في كفة الأقدار[90].

وفي 10 تشرين الأول (أكتوبر) 1840، سحق الجنود الإنكليز قوات إبراهيم باشا على مقربة من بيروت، فاضطر المصريون إلى إخلاء المناطق الجبلية من لبنان، والجلاء عن الساحل، واستسلم الأمير بشير الشهابي، حليف محمد علي، إلى الإنكليز فنفي إلى مالطا[91].

وفي 3 تشرين الثاني (نوفمبر) 1840 سقطت عكا بعد قصفها بحراً[92]، واحتلت المدينة وحدة إنكليزية صغيرة، وشرعت بالتقدم نحو القدس، وقامت في فلسطين انتفاضات ضد المصريين، وأصبحت مقاومة المصريين دون جدوى.

استسلام محمد علي: وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 1840 قاد نابير عمادة إنكليزية إلى الاسكندرية، وقدم إنذاراً إلى محمد علي هدد فيه بإطلاق النار على القاعدة الرئيسية للأسطول المصري.

وتأثر محمد علي من تهديدات الإنكليز المتكررة باحتلال مصر، وقال: «إن الإنكليز يتهددوني بالنزول إلى بر مصر، فليجربوا! ولينفذوا وعيدهم! فسيرون أننا على استعداد لملاقاتهم، وأن الأجنة في بطون أمهاتهم ستشترك في قتالهم»[93].

أمام الموقف الحرج في سورية، وشواطىء مصر على البحر المتوسط، رأى محمد علي أن يجنح إلى السلم، إذ لا طاقة له بمحاربة أوروبة مجتمعة، خصوصاً بعد تخلي فرنسة عنه، فقبل أن يجلو عن سورية، وأن يرد الأسطول العثماني إلى السلطان، مقابل تخويله حكم مصر وراثياً بضمانة الدول الأوروبية.

وبإلحاح من مُمثِّلي الدول الكبرى، وافق الباب العالي على خضوع محمد

---

(90) تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص 142.

(91) مالطا: جزيرة في البحر المتوسط بين صقلية وليبيا، احتلها الإنكليز 1800 م، ولعبت دوراً هاماً في الحرب العالمية الأولى.

(92) عصر محمد علي، ص 298، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص 254.

(93) تاريخ محمد علي، موريه: 253/4.

علي، وكانت القرارات النهائية للباب العالي، التي وافق عليها في أيار (مايو) سنة 1841 ممثلو الدول الكبرى:

تم التنازل لمحمد علي عن الحق في الحكم الوراثي لمصر والسودان، بمثابة والٍ مفوض للسلطان، وحددت الوراثة لأكبر الذكور في أسرته، وقلص جيش محمد علي حتى 18.000 جندي، وحرم من حق تعيين الجنرالات في جيشه، ومن حق بناء السفن الحربية، وأعاد إلى السلطان أسطوله الحربي، واعترف بأنه تابع للسلطان، وتعهد بدفع جزية كبيرة إلى خزينته، وأخلى سورية والجزيرة العربية وكريت[94].

* * *
* *
*

(94) مصادر الموضوع:
- عصر محمد علي، عبد الرحمن الرافعي، دار المعارف بمصر، ص 217 وما بعدها.
- تاريخ محمد علي، للمسيو موريه Moureiz: 376/4.
- المسألة المصرية والقانون الدولي، دي مارتانس (سنة 1882)، ص 5 وما بعدها.
- سنتان من تاريخ الشرق [1839-1841]، كادلفين وبارو: 168/1.
- مصر الحديثة، فولابل: 249/2.
- لمحة عامة عن مصر، كلوت: 319/2.
- تاريخ الأقطار العربية الحديث، لوتسكي: ص 140 وما بعدها.
- سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، بازيلي، ص: 260 وما بعدها.